مجلة المرابط

العدد : ٢١٦ الموافق في شوال ١٤٢٠ هجري ٢ / ٢٠٠٠ ميلادي

| عنوان المقال : إحقاق الحق -١- ( البحث عن الحق ) | بقلم : م. ذو الفقار |
|---|---|

إن حب الحق ، والالتزام به ، والعمل به وله ، والدعوة إليه والتواصي به .. من طبيعة الفطرة الإنسانية السليمة السوية ، فالإنسان مفطور على حب الحق ، مفطور على كراهية الظلم ، طموح إلى كل ما هو حق وخير وجمال . وهذا ينطبق بشكل خاص على الإنسان المسلم ، انظر معي إلى ما حدث به الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » . وذلك لسبب قوته الفطرية واستعداده في الحكم على الأشياء وإصابته في معرفة العدل والظلم ، وخبرته من خلال واقع الحياة والعالم الذي يعيش ويحيط به . ولكن هذا الاستعداد الفطري ينطبق أيضاً على النفس البشرية العاقلة وغير المسلمة أيضاً ، يذكر عن أرسطو قوله : " إني أحب الحق وأفلاطون ، فإذا افترقا فالحق أولى بالمحبة " . ويقول الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله : " لا يجتمع حب الحق وموالاة المبطلين في قلب مخلص أبداً " . ورحم الله شوقي حيث يقول :

**والحق أرفع ملة وقضية  من أن يكون رسوله الإضرار**

والله سبحانه وتعالى **هو الحق** { **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم** } [ الأنعام : ٦٢] ، { **فذلكم الله ربكم الحق** } [ يونس : ٣٢] ، { **فتعالى الله الملك الحق...** } [ طه : ١١٤ ] **وقوله الحق** { ... **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** } [ الأحزاب : ٤ ] ، { ... **ويوم يقول كن فيكون قوله الحق** ... } [ الأنعام : ٧٣ ] ، وله **دعوة الحق** { **له دعوة الحق** ... } [ الرعد : ١٤ ] ، { ... **ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون** } [ يونس : ٥٥ ] ، **وحكمه بالحق** { ... **وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** } [ الزمر : ٦٩ ] ، { ... **وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** } [ الزمر : ٧٥ ] ، { **والوزن يومئذ الحق** ... } [ الأعراف : ٨ ] ، وأنزل **الملائكة بالحق** { **وما ننزل الملائكة إلا بالحق** ... } [ الحجر : ٨ ] ، { **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا** ... } [ النحل : ١٠٢ ] وأرسل **رسله بالحق** { **يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ... } [ النساء : ١٧٠ ] ، { **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ... } [ البقرة : ١١٩ ] ، وأنزل **كتبه بالحق** { **ذلك بأن الله نزل الكتاب**

**بـالحق ...** } [ البقـرة : ١٧٦ ] ، { **... وأنــزل معهـم الكتـاب بـالحق ...** } [ البقـرة : ٢١٣ ] { **خلـق السموات والأرض بـالحق ...** } [ التغـابن : ٣ ] ، { **وهـو الـذي خلـق السموات والأرض بـالحق ...** } [ الأنعام : ٧٣ ] ، { **ومـا خلقنـا السموات والأرض ومـا بينهمـا إلا بـالحق ...** } [ الحجـر : ٨٥ ] فـالله هو الحق ، وخلق الإنسان بالحق ، وخلق الكون بالحق ، فالحق هو قوام الوجود ، وأساس الحياة ، والابتعاد عنه أو تحييده عن واقع الحياة هو الفساد كل الفساد . يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ : " أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق " .

ويقول سيد قطب رحمه الله في مقدمة الظلال : « والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود ، ليس فلتة عابرة ، ولا مصادفة غير مقصودة ، إن الله سبحانه هو الحق ، ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده { **ذلك بأن الله هو الحق وأن مـا يدعون من دونـه الباطل وأن الله هو العلـي الكبير** } [ الحج : ٦٢ ] ، وقد خلق الله هذا الكون بالحق لا يتلبس بخلقه الباطل { **... مـا خلـق الله ذلك إلا بـالحق ...** } [ يونس : ٥ ] ، { **... ربنا مـا خلقت هذا بـاطلاً سبحانك ...** } [ آل عمران : ١٩١ ] . والحق هو قوام هذا الوجود ، فإذا حاد عنه فسد وهلك **{ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ...** } [ المؤمنون : ٧١ ] ومن ثَمَّ فلا بد للحق أن يظهر ولا بد للباطل أن يزهق ، ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح { **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** } [ الأنبياء : ١٨ ] » .

والحق واحد لا يتعدد ، أزلي لا يبلى ولا يتجدد { **... فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** } [ يونس : ٣٢ ] وليس بين الحق والباطل قرابة ، يقول الشيخ متولي شعراوي رحمه الله - أهوال القيامة ص ٣٨ - : « والصراع في الدنيا لا يكون بين حق وحق ، لأن الحق واحد ، فلا يوجد حقان ، ولكن الصراع في الدنيا إما أن يكون بين حق وباطل وفي هذه الحالة ينتهي سريعاً ، لأن الله ينصر الحق ويزهق الباطل ، وإما أن يكون بين باطل وباطل وفي هذه الحالة لا يعين الله باطلاً على باطل ، بل يترك الطرفين كل لما يستطيع أن يعده لفنون القتال ، فيطول الصراع ويبقى فترة طويلة دون أن يستطيع أي من الطرفين أن يحقق نصراً حاسماً ، وفي هذه الحالة يعاني البشر من شرور الباطل معاناة لاتنتهي»

ويقول الأستاذ عصام العطار حفظه الله: « إن الحق واحد لا يتعدد بنظر الإسلام ، وإن ما عدا الحق هو الضلال ، ولا لقاء بينهما أبداً ، ودفاعنا عن هذا الحق هو دفاع الشرف عن الذين يصرون على إقراره في الأرض ، وتخليص البشرية من ظلام الكفر ولوثات الجاهلية ؛ فإما حكم الله وحياة الطهر

والعفاف والحرية والكرامة ، وإما حكم الجاهلية وحياة البؤس والشقاء » ويقول جبران خليل جبران : « للبحر مد وجزر ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء ، أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير » .

والحق واضح أبلج لا التباس فيه ولا غموض ، وقد قالت العرب قديماً : « الحق أبلج والباطل لجلج » يراد به أن الحق متكشف والباطل ملتبس ، يقال انبلج الصبح إذا انكشف " ومنه سمى الكشفة بين الحاجبين بلجه " واللجلج من قولهم : تلجلج في القول ، إذا تتعتع فيه ولم يستوف العبارة منه ( جمهرة الأمثال للعسكري ج١ : ص٣٦٤) .

وقديماً قال الشاعر :

**ألم ترَ أن الحق تلقاه أبلجاً وأنك تلقى باطل القول لجلجا**

وقال آخر :

**فإن الحق ليس به خفاءٌ ولا تخفى الخيانة والخلابُ**

وقال أبو تمام :

**الحق أبلج والسيوفُ عواري فحذار من أسد العرين حذار**

فالحق واضح ، إن التبس عليك فإنه لا يخفى على أهل العلم والمعرفة ، وإن غابت عنك ملامحه وأبعاده ، فإنها لا تغيب عن أهله وأنصاره ، انظر إلى قارون عندما خرج في موكبه وزينته وأمواله ، كيف كان قول السواد الرعاع من العامة الذين تأثروا به ، وماذا كان جواب أهل العلم عليهم ؟ : { **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ❋ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير** ... } [ القصص : ٧٩- ٨٠ ] . ولذا مدح الله العلماء الذين عرفوا الحق وآمنوا به واقتدوا به ونشروه وعلموه للآخرين { **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد** } [ سبأ : ٦ ] { ... **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ... } [ البقرة : ٢٦ ] { **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم** } [ البقرة : ١٤٤ ] { **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** } [ الرعد :١٩ ]

والحق وإن غابت معالمه عن العامة أحياناً أو خفيت حقائقه عن بعض الناس أيضاً ، إلا أنها لا تخفى على النخبة المخلصة من علماء الأمة ، والعلم الذي يوصل إلى الحق ، ليس من جهة أخرى بالشجرة الوارفة الظلال دانية القطوف سهلة المنال ، بل هو صروح مشيدة ، لا يتم الوصول إليها إلا من خلال سلوك سبل متعرجة وعرة ، قد تحيط بها الظلمات الداكنة ، وقد تعصف بها الرياح العاتية ، ويحتاج إلى جهاد ومثابرة مستمرة ، وتضحيات متتالية للتغلب على العقبات وتجنب العثرات ، وهذا لا يتم أيضاً إلا من نفس عظيمة أبية تستعذب الصعاب ، وتستصغر العظائم وتستلذ المشاق والآلام ، " ومن طلب الحسناء لم يُغْله المهرُ " . وهو طريق أيضاً يستلزم من الباحث عن الحق أن يكون متواضعاً أشد التواضع للوصول إلى الهدف البعيد ، ويحتاج منه أن يستهدي بنور الله في كل لحظة وفي كل مكان ، لكي ينير له المسالك ، ويزيح عنه المهالك ، ويبعد عنه الضلالات ، ويحتاج أيضاً إلى تهذيب النفس ومحاكمتها ونقدها المستمر ، وتحكيم العقل لا الهوى للوصول إلى قمة الهدى . ومما يساعد على الوصول إلى الحق أن يعلم الإنسان علم اليقين أنه يجب أن يسعى إليه وأن يأخذه - أي الحق - مهما كان مصدره ، بغض النظر عن السن أو الجنس ، الحب أو البغض ، القرب أو البعد ممن يصدر عنه . يقول الإمام الفضيل بن عياض : « من جاءك بالحق فاقبل منه ، وإن كان بعيداً بغيضاً ، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً » وقصة الفاروق في موضوع تحديد المهر وجواب إحدى النساء عليه ، وقوله المأثور الذي ذهب مثلاً : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » . ويقول أبو حامد الغزالي رحمه الله في " المنقذ من الضلال " : « والعارف العاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال عالماً بأن معدن الذهب الرغام » . ويقول شاعر المعرة أبو العلاء :

**رب شيخ ظل يهديه إلى سبل الحق ما احتلم**

والوصول إلى الحق ومعرفته ، قد لا يتم سريعاً ولا يتحقق آنياً ، وكما قال أمير المؤمنين علي ﷺ : « لا يدرك الحق إلا بالجد ، ولكن عذر الباحث عن الحق ومن يسعى إليه أنه ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .

وإذا عدنا إلى تراجم الصحابة وقصة البحث عن الحق لأدركنا شدة المعاناة في طلبه ، وحلاوة النشوة واللذة في الوصول إليه . وهنا يمكن الرجوع إلى قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي وقصة البحث عن الحق لنأخذ منها أفضل العبرات والعظات ، وقصة الإمام العظيم أبي حامد الغزالي وبحثه

عن الحق كما ذكرها في كتابه " المنقذ من الضلال " قصة كفاح طويلة ومعاناة مستمرة وجهد دؤوب ، وقد قالوا قديماً : " لم يَجُرْ سالكُ القصد ، ولم يَعْمَ قاصدُ الحق " .

ولقد عانى الرسول ﷺ أشد المعاناة في رحلة البحث عن الحق كما تطالعنا كتب السيرة النبوية الطاهرة ، ولعل من أفضل من عبروا عن هذه المعاناة وصورها أجمل تصوير الكاتب القدير أحمد أمين في " فيض الخاطر " (ج٢ :ص ٢٩٦) يقول : « لقد عرف الباطل ويريد أن يعرف الحق ، وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ، ولم يحب ما عليه الناس ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس . هذا الظلامُ فأين النور ؟ وهذا العمي فأين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون فأين ما يجب أن يكون ؟ لقد طلب الحق في غار حراء بعد أن تهيأت نفسه واستعدت روحه وكملت مشاعره ، وتوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهاصاً لليقين ، وضلاله إرهاصاً للهدى ، وكانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشراً ، ومحمد بشراً رسولاً ، لقد صعد إليه إنساناً حائراً ، وهبط منه إنساناً نبياً ، مهتدياً مطمئناً ، ونزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يحيوا قلوبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره .. » .

وأحياناً ورغم البحث والجد والسعي ، قد يخفى الحق عن الأنظار ، وقد يُخفي الحق عن الأنظار نسيجٌ مهلهل ، أو قد يفرق بينه وبين الباطل خيط رفيع أو حد شعرة ، ومع ذلك لا بد من متابعة البحث وحشد قوى الجسم المعنوية والمادية ، وأن يكون شعار الباحث عن الحق ما قاله ابن الحقيق :

**إني إذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل**
**واعتلج الناس بآرائهم نقضي بحكم عادل فاصل**
**لا نجعل بالباطل حقاً ولا نرضى بدون الحق للباطل**

يقول الأستاذ أحمد أمين في " فيض الخاطر ج٧ : ص٦٧ " معقباً على هذا الشعر : « يدعو هذا الشعر إلى أن الأهواء إذا اختلفت ، والآراء إذا اشتبكت وتضاربت ، يجب على الإنسان ألا يتجنب المعركة ولا يفر من الميدان ، ولكن يبتعد عن الأهواء كلها ، ويدرس الآراء كلها في دقة وإمعان ، حتى يعرف صحيحها من باطلها ، ولا ينخدع بزيفها ، فإذا تبين له وجه الصواب أعلنه ، وأعلن التمسك به ، فقضى بالرأي الذي يراه صواباً وعدلاً ، وقاله قولاً فصلاً ليس فيه إبهام ولا غرض ولا التواء ، ثم هو لا يكتفي بالقول ، فما القول إذا لم يُدعم بالعمل ، فلا يقر قراره حتى يكون الحق ، ويحل محل الباطل ، ثم

لا يكتفي بأنصاف الحلول فإما الحق كله أو لا شيء غيره ، فذلك قوله ولا نرضى بدون الحق للباطل » .

وإنها قلة قليلة من الناس من تسعى جادة في البحث عن الحق والوصول إليه ، وأقل منها من تلتزم هذا الحق وتدعو إليه وتثبت عليه . يقول الأستاذ أحمد أمين : في " فيض الخاطر ج٣ : ص١٤٢ " : « ومن أجل هذا كان دعاة التجديد والإصلاح في كل أمة ، وفي كل عصر نادرين جداً ، وندرتهم لم تأت من ندرة الذكاء ، وإنما أتت على الأغلب من ندرة احتمال العقل الصبر على البحث وراء الحق ، وندرة الشجاعة في اعتقاد الحق والجهر به ، فالناس - إلا القليل النادر - يألفون الحياة كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، وهم بين من لا يجد إلا زمناً لتحصيل قوته ، ومن يجد الفراغ ولكن لا يستطيع عقله الصبر على البحث الحر ، أو يجد كل ذلك ويستطيعه ولكن لا يستطيع الجهر به لما يتوقع من متاعب وآلام : مساس بسمعته ، وقدح في ذمته ، وتهكم على عقله ، وتجريح لخلقه ، ونيل من دينه » . ويقول خير الدين الزركلي :

**رأيت سبيل الهدى وعرةٌ ولم أر في الناس من يسلكُ**

وأخيراً لا بد لمن يسعى ويبحث عن الحق أن يطلب قبل كل شيء معونة الله وهداية الله ، فنور الله ينير لك السبل ، ويمكّنك من أن تفرق بين الحق والباطل ، لأنه من ضل عن الحق وقع في الضلال ، وكم سمعنا عن بعض الفئات والجماعات أخلصت في طلب الحق ولكنهم ضلوا الطريق إليه . يقول الأستاذ عصام العطار : « أنا ضامن أن تصلوا إلى الحق والصواب في كثير من الأمور الملتبسة عليكم الآن ، شريطة أن يكون عندكم التجرد لله عزَّ وجلَّ ، والصدق والإخلاص في طلب الحق والصواب ، فالأهواء والمصالح والعبودية للدنيا تحجب الرؤية الواضحة ، أو تجعل أصحابها يكابرون في المحسوسات ويجادلون في نور الشمس أسطع ما يكون » .

ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في " جدد حياتك ص٥٠ " : « وجدير بالإنسان في عالم استوحش فيه الحق على هذا النحو أن يجتهد في تحريه وأن يلتزم الأخذ به ، وأن يرجع إليه كلما أبعدته التيارات عنه ، ولعل هذا هو السر في أن الله طلب إلى كل مؤمن أن يسأله الهدى ، وكلفه ألا يسأم من تكرار هذا السؤال حيناً بعد حين » .

ويتابع رحمه الله : « على أن الاهتداء إلى الحق والثبات على صراطه يحتاج إلى جهد ودأب ، ويحتاج كذلك إلى استلهام طويل من عناية الله ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر ضجَّ إلى الصلاة يضم إلى عزيمته وجَلَدِهِ حولَ الله وطوله » .

وقد تكون بعد علم وبحث ومثابرة على باطل ، ويتراءى لك الحق ، فحذار أن تبقى على الباطل ، والرجوع إلى الحق فضيلة والتمادي في الباطل رذيلة . يقول الإمام الشعبي رحمه الله : « إني لأستحيي من الحق إذا عرفته ألا أرجع إليه » ، ويقول الأستاذ عصام العطار : « لا تقل لم يعد بإمكاني أن أصحح خطئي بعد أن تماديت فيه إلى هذا الحد ، فأنت تملك التصحيح ما ملكت الإخلاص والإرادة والشجاعة ، وإياك إياك أن تهرب من واجب التصحيح وتبرير خطئك لنفسك وللناس ففي ذلك الضياع الحقيقي والهلاك كل الهلاك والخسارة كل الخسارة » .

ويقول أيضاً : « لا تكن أخطاء الأمس حاجزاً بينك وبين صواب اليوم ، ولا تغد أسير طريق سلكته إذا وجدت أن الطريق الأقوم والأفضل طريق سواه » .

ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في " جدد حياتك ص ٩٤ " : « ولطبيعة الإنسان نزوات تطفو بها أحياناً وتطيش ، والمخوف في هذه النزعات أن يسترسل المرء معها ، فإن هذا الاسترسال يرمي به في مطارح لا يعود منها سالماً ، ولذلك قال ابن المقفع : « المؤمن بخير ما لم يعثر ، فإذا عثر لج به العثار » .

ويتابع الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : « إن الإنسان يخطىء حتماً ، فليست العصمة أملاً له ، ولا طبعاً فيه ، وهو يعاني نتيجة ما يتورط فيه من أخطاء انفعالات مضطربة حمقاء ، وأفضل ما يصنع أن ينفض يديه كلتيهما مما حدث وألا يدع اللجاجة تنتقل من سيء إلى أسوأ ومن ظلال داكنة إلى ظلمات بعضها فوق بعض ، اجتهد ألا تسلك طريق ضلال ، فإذا سلكته - تحت أي ضغط أو إغراء - فاجتهد ألا توغل فيه ، وعد من حيث جئت في أقرب فرصة وفي أسرع وقت » .

وما أجمل أن تصل إلى الحقيقة بعد رحلة العناء الطويلة ، كالمسافر في الفيافي والصحاري قد ضل الطريق ثم وجد واحة الراحة والاطمئنان ، وكالغريق الذي أوشك على الغرق ثم وجد يداً تنتشله إلى ضفة الأمان ، والصادي الذي حرق جوفه الظمأ ثم يجد ما يروي غلة العطشان . يقول شوقي :

**أعِدَّتِ الراحةُ الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق مَنْ لم يَألُهُ طلبا**

يقول الأستاذ عصام العطار : « ألا ما أنبل السعي وراء المعرفة ، والتعب في طلب الحقيقة ، والكفاح الدائم للسمو على معيشة الأنعام والهوام ، وما أعظم أن يصل الإنسان إلى اليقين فيجد الطمأنينة بعد القلق ، والأمن بعد الخوف ، والراحة الندية بعد مشقة السير ولفحة الهجير ، أما الذين تشعبت بهم الطرق ، وتاهوا في أودية الضلال ولم يجدوا السبيل إلى الله ، فهم في بلاء وعناء وغم شديد ، وما أروع

ما تفصح عمن حالتهم تلك الصيحة التي أرسلها تولستوي كما يرسل الغريق المتخبط في اليم صيحته الأخيرة العالية تحمل كل ما عنده من رجاء وكل ما ينطوي عليه من أسى ويأس : رب هبني إيماناً ، وهب لي أن أساعد الناس ليجدوه » .